من نحو الجملة إلى نحو النص
(قراءة في الخلفية اللسانية للنظرية السيميائية)

أ.د. عقاق قادة
جامعة جيلالي ليابس بسيدي بلعباس

تمهيد:

يُجمع كثير من الدارسين على أنَّ المعرفة اللّسانية عمّقت الخطاب النقدي السيميائي وأغنت لغته، وأسهمت بقوة في انسجام مقولاته وتوحيد مفاهيمه وصك مصطلحاته، انطلاقا من كونه امتدادا لها وتطويرا لآلياتها، بل ويغالي بعضهم أكثر إلى درجة يعتبر فيها أنَّ السيميائية في حقيقتها ما هي إلا مجرَّد نقل حرفي للمعرفة اللسانية[1].

غير أن المتتبع للسيميائية، باعتبارها نظاما أو شبكة من العلاقات المنّظمة بتسلسل[2]، كما يذهب إلى ذلك القاموس المعقلن لنظرية الكلام لـ "غريماس" و"كورتيس"، يجد أن مصطلحاتها ودلالة هذه المصطلحات "ليست لسانيات متطورة تحاول أن تكون كليَّة النظرة شمولية النزعة بحيث تتسلّط على كل ما هو لغة، وخطاب، وسمة، ونص، وتركيب وتأويلية (**Herménentique**)، ودال، ومدلول، وما إلى كل هذه المصطلحات التي كان معجم اللسانيات يعجّ بها قبل ظهور هذا العلم (...) ولكنها حاولت تطوير هذه المفاهيم وتطويعها لا تجاهلها فأضفت عليها معاني جديدة لم تك فيها من قبل"[3].

إنّ السيميائية، وعلى الرغم من كونها جاءت كردٍ على اللسانيات وتجاوز لها، من خلال ارتقائها بالتحليل إلى مستوى أعلى من الجملة التي

وقفت عندها هذه الأخيرة ولم تبرحها، لتلامس من خلال هذا الارتقاء حدود الخطاب في كليته وشموليته، إلا أن ذلك لم يؤل إلى قطيعة منهجية بين العلمين، بحيث ظلّ "التحليل السيميائي للخطاب ينطلق مما انتهت إليه جهود اللسانين حول النظرية العامة للغة وبمسائل التصورات التي أحيطت بالخطاب ويقتضي أن يكون متجانسا مع الثنائيات الأساسية (اللغة/الكلام)، (النسق/ العملية)...(الكفاءة/الأداء الكلامي)، كما أنه لا يغفل العلاقة التي تربطه بمقولة التلفظ"[4].

بناء على ما تقدَّم نستطيع القول، إن الاستقراء الدلالي الذي تأسَّس منذ ما يزيد عن ثلاثة عقود من الزمن، باعتباره مشروعا يُعنَى- في نظر هينو (A.HENAULT)- في الأساس بـ "وصف القواعد العامة لإنتاج المعنى الإنساني وصفا دقيقا"[5] من خلال الاهتمام بشبكة العلاقات المولِّدة للمعنى ضمن تحديد وحداتها الدالة وتنظيمها في إطار متكامل يشمل الخطاب في كلّيته- كما أسلفنا القول- عازلة في ذلك الوحدات الدالة الصغرى المميزة، مجزئة الخطاب إلى جمل، على الرغم من كونه جاء كردّ على الألسنية التي تقصر مجال اهتمامها في الدراسة اللغوية على الدال، دون الالتفات إلى المدلول، لكونه- في نظرها- غير قابل للتقسيم وفق الوحدات المميزة[6] (Unités Discrètes)، إلا أنّ هذا الاختلاف الإستقرائي الظاهر- الذي يبدو للوهلة الأولى تعارضاً عميقا- لم يؤدّ إلى قطيعة جذرية بين العلمين، بقدر ما يعني تطورا في الأدوات وتعمقًا في الأسس، وتوسُّعا في المواضيع، وتدقيقا في المصطلحات، وتجاوزا للأخطاء. ذلك لأنّ نقاط تقاطع بارزة ووشائج توالج عميقة وأسباب اتصال بارزة تجمع ما بين أساليب التفكيك السيميائي ومناهج التحليل اللساني.

ولعلّ أبلغ مثال على هذا التوالج و هذا التقاطع، ذلك الجدل الذي يثار حول أيّ العلمين يحوي الآخر، وبعبارة أدّق أيّهما الأصلُ وأيّهما الفَرعُ؟

فبينما يميل "دي سوسير" وبعض أتباعه إلى اعتبار اللسانيات فرعا من علم العلامات العام محتواة فيه ومُضمَّنة في نطاقه، مثلها مثل غيرها من وسائل الاتصال والتعبير الأخرى كالإشارات العسكرية والرموز والطقوس في كتابه (**دروس في اللسانيات العامة**)7، نجد بارت (**R. BARTHES**) وبنفنست (**E.BENVENISTE**). و(كرستيفا **J.KRISTÉVA**) مع بعض الاختلافات يتبنّون وجهة نظر مغايرة لما ذهب إليه دي سوسير وتنبأ به، حيث يعتبرون أنّ اللسانيات أعم من السيميائية، فلولا النموذج اللساني، ما كان للسيميائية أن تُوجد، ولما استطاعت أن تُكَوِّن لنفسها هذا الجهاز المفاهيمي الغني، وهذه الآليات والأدوات الإجرائية النافذة التي أصبح بفضلها التحليل السيميائي ممكنا؛ حيث يجترح بارت في مؤلفه "**عناصر السيميولوجيا**" قائلا: " يجب منذ الآن قلب الأطروحة السوسيرية، لأنّ اللّسانيات ليست فرعا، ولو كان مميزا من فروع علم العلامات العام، بل السيميولوجيا هي التي تُشكِّل فرعا من اللسانيات[8].

وهو إذ يؤكد هذا الاحتواء الذي تمثّله اللسانيات بالنسبة إلى السيميائيات، نجده يشير- وعلى الرغم من ذلك- إلى الاختلاف الموجود بين العلمين في الأسس والغايات؛ حيث يقول "... فما هذا العلم الذي يتخذّ الوحدات الدلالية الكبرى موضوعا لدراسته سوى تابع للسانيات[9].

فبينما تحصرُ اللّسانيات مجال اهتمامها في إطار الكلمة ولا تتجاوز في أحسن الأحوال نطاق الجملة، وتُطَوِّر أدوات بحثها على حساب علم المعاني

الـذي بقـي نـسيا منـسيا[10]، مـن منطلـق طبيعتـه التجريديـة وعـدم قابليتـه للملاحظة، واستحالة التقاطه وفحصه[11] (علميا)، نجد الدراسة الدلالية أو العلامية، وكما يشير إلى ذلك بارت (R. BARTHES)- ومن منطلق كونها جاءت بمثابة ردٍّ حاسمٍ على الشكلية والتجزيئية التي غرقت فيها اللسانيات- تسمو بالدراسة إلى مستوى أعلى من ذلك "مستهدفة استقراء النظام الدلالي استنادا إلى وحدة أكثر اتساعا من الجملة وهي الخطاب الذي لا نَستخلص منه فائدة بمجرد ضمّ بعض الوحدات الدلالية الصغرى المكوِّنة له إلى بعض إنما ندركه جملة وفي كلّيته"[12]، ولعلّ ذلك ما يطلق عليه (BENVENISTE) تسمية "المعنى المقصود الشامل"[13].

انطلاقا من هذا، أحالُنا لا نبالغ إذا قلنا إنَّ الاتجاه الذي يخالف فيه أصحابُه رأي سوسير في تبنّيهم لمسألة شمولية اللسانيات باعتبارها أصلا وخصوصية السيميائية باعتبارها فرعا، لا يجانب الصواب، وذلك لأنّه "بات من الضروري اصطناع المعجم اللساني في معظم المقاربات السيميائية نظرا لأنّ اللسان نسق سيميائي يرفض فكرة النزعة الذرية للعلامات (...) ويتّسع أيضا لاستعماله في جميع الأنساق الدالة"[14].

ولعلّ ما يعطي هذا الرأي وجاهته، هو أن تلك الغاية التي تطمح إليها السيميائية في تحليلها للنصوص، والمتمثلة في إبراز آلية النص في خلق المعنى وتبليغ صداه، من خلال الكشف عن شبكة العلاقات القائمة في صلبه وفنون تأليف وحداته الدالة، تجد منطلقها الأساسي في ذلك المبدأ الذي أقرّته اللسانيات الحديثة والذي مفاده أن الأصداء الدلالية هي حصيلة الاختلافات القائمة بين الدوال[15].

غير أنّ ما يمكن أن تُنجزه المفاهيم المستمدة من اللسانيات، في الدفع بعجلة الدرس السيميائي قدما إلى الأمام، لا يتوقّف عند هذا الحد. بل نجدها أيضا تُحدَّد في أنّ كثيرا من المبادئ التي تتّخذها السيميائية منطلقا أساسيا في تأسيس لغتها الواصفة ووسم مقاربتها بطابع العلمية التي لا مجال فيها لفوضى الأذواق تمتدّ بجذورها في اللسانيات فيما هي تروم الانفصال عنها؛ " إنّها لغة واصفة تستند في تشكُّلِها إلى الدَّرس اللساني ولكنّها تستمدّ مردوديتها التحليلية من النص وليس من الجملة[16]، الأمر الذي أسَّس لما يسمّى (لسانيات الخطاب) أو السيميائية الأدبية. وهكذا بدأ الحديث عن النحو الأصولي والنحو السردي، والنحو النصي. كما بدأ الحديث عن النَّسقي وعن المتنافر، عن الثابت وعن المتحول، عن التركيب السردي (أو النصي)[17]، مما غدت بموجبه القصة، باعتبارها بناء سرديا، وخصوصا عند (بارت) "جملةً كبيرة"، ولذلك فإنَّ كل جملة تقريرية - وفق هذا التصوُّر- هي تدشين لحكاية[18].

ومهما يكن من أمر، فإن كثيرا من المبادئ اللسانية التي استمدتها السيميائية أصبحت تقتضي داخل نطاق هذه الأخيرة، "أن كل الجوانب المتعلقة بتكوين النص ونمط اشتغاله ومستويات تحليله يجب النظر إليها في كليتها أي باعتبارها بنية"[19].

وربما من أجل هذا نجد (بارت) في مقاله الشهير (**مدخل إلى التحليل البنيوي للحكاية**) الذي يهدف فيه إلى البحث عن "بنية القصة"، يستنكف عن تلك المقاربات القائمة على الاستقراء أو القياس لصعوبتها بل واستحالتها- ناهيك عن تبسيطيتها وطوباويتها- خاصة والباحث يواجه عددا لا متناهيا من القصص المُتنوِّعة التي يَصعُبُ حصرها وتحديدها،

ويدعو إلى تبني دراسة استدلالية أو استنباطية يمكن من خلالها خلق نموذج افتراضي للوصف، مؤكدا أنَّ هذا النموذج الذي بإمكانه أن يفسح المجال للباحث للقيام بمحاولات متنوعة جدا، يجب أن يكون قريبا من اللسانيات، حيث يبدو من المعقول كما يعتبر (بارت) في الوضع الراهن للبحث أن تُقَدَّم اللسانيات بالذات كنموذج مؤسس لتحليل القصة تحليلا بنيويا[20]. ولعل أكثر هذه المحاولات جذرية، بحسب تعبير (بول ريكور Paul RICOEUR) هي "تلك التي تعمل على استخراج القيم البنيوية لوحدات أكبر من الجملة، وذلك انطلاقا من البنيات اللسانية نفسها".[21]

1.1). الإرث السوسيري:

لا غرابة في أن نجد العلاقة بين السيميائية واللسانيات جد متينة، بل وطبيعية، وذلك لأن المفاهيم العلمية الأولى التي سنها "دي سوسير" في دراسته اللسانية، والتي طوَّرها فيما بعد بعضُ أتباعه- من خلال تلك القراءات الجديدة التي قدموها لنموذجه- مثل: (اللغة/الكلام)، (الدال/المدلول)، (الوحدة/الاختلاف)، بالإضافة إلى اعتباره اللغة موضوعا دلاليا ذا طابع اجتماعي، العلاقة فيه بين الدال والمدلول اعتباطية، لكونها لا توجد إلا بمقتضى عقد مبرم بين أعضاء الجماعة، وهي (أي اللغة) فضلا عن ذلك (شكل) أو (بنية) وليست (مادة) - على اعتبار أن الوحدات الصوتية هي محض علائقية أو بنيوية، تكتسب قيمتها ومعناها من خلال علاقتها واختلافها مع وحدات أخرى خاضعة لنسق اللغة، وليس لنظام العقل، مما جعل "دي سوسير" يؤكد أنه لا يوجد شيء في اللغة إلاَّ اختلافات[21]22- إنَّ هذه المفاهيم السوسيرية تعدُّ من أهمِّ المبادئ التي أقامت عليها السيميائية صرحها وارتكزت عليها في مقارباتها المتنوعة. وهذا

يؤكد ما ذهب إليه بارت- في القول المشار إليه أعلاه- من أن المشروع السيميائي لا يمكنه أن يتبلور ما لم يتخذ اللسانيات نموذجا له، كما يؤكد من جهة أخرى ما يذهب إليه كلود شاربول **Claude CHARBEL**) حينما يقرر أن "السيميائية الأدبية واللغوية لا يمكن أن تحل بعض مشاكلها إلا إذا تأسّست سيميائية عامة تدرس الأنظمة الإبلاغية العامة بالاعتماد على علم النفس والاجتماع والانتروبولوجيا، وتكُون اللسانيات ولسانيات الخطاب أي "السيميائية الأدبية" مظهرا من مظاهرها ومستوى محددا من مستوياتها[23].

إنَّ العلاقة بين اللسانيات البنيوية والسيميائية وثيقة للغاية، سواء أمِن حيث المنهجية المتبعة أم من حيث الغرض الذي ترمي كلٌّ منهما إلى تحقيقه، فالسيميائي كاللساني مَعنيٌ بالدرجة الأولى بتفكيك الظاهرة موضوع الدَّرس- اللغوية وغير اللغوية عند الأول واللغوية عند الثاني- إلى أصغر وحدات إشارية ممكنة لفحص بنيتها وتصنيف طبيعة عناصرها، وتحديد علاقاتها المتبادلة ضمن سياقاتها، ومعرفة الأنساق الخاضعة لها، والمُتحكِّمة في صياغة معانيها. بمعنى أنها تروم الوقوف على القوانين الضمنية التي تخضع لها الظاهرة المدروسة[24]. فاللُّغةُ في اللسانيات، وشتى الظواهر الاجتماعية والثقافية الأخرى- باعتبارها آليات تواصلية تعمل وفق أنساق إشارية (ضمنية) خاصة بها- بما فيها اللغة في السيميائية، نجدها تعمل وفق قاسم مشترك بينها هو مبدأ "الشكل" أو "البنية"؛ ذلك لأن عناصر أي لغة تعمل دائما كبنية علائقية، وتكتسب العناصر معانيها، أو قيمتها الإشارية، حسب موقعها (سياقها)، في البنية واختلافها مع عناصر أخرى حدّدها نسق (قانون) معين"[25].

بناء على ما سبق يمكننا القول، إن المنهجية السيميائية تبلورت نظريا وعمليا- في بعض أسسها- في أحضان اللسانيات البنيوية، كما عُرِفَت لدى دي سوسير وأتباعه، وهذا يعني في بعض جوانبه، أنّ " السيميائية في حقيقتها وريثة اللسانيات البنيوية، مُقَدَّمَةً في تقليعة جديدة"[26]. وربما من أجل هذا نجد أن عناصر سيميولوجيا الدلالة عند بارت، والتي يستعين بها لمقاربة مختلف الظواهر السيميائية: كأنظمة الأساطير والدعاية والإشهار والأزياء وغيرها، والمتمثلة في: اللغة/الكلام، الدال والمدلول، المركب والنظام، التقرير والإيحاء، كلها مستقاة على هيئة ثنائيات من اللسانيات البنيوية.

وهو أمر يمكّننا من القول، إن الدعم المنهجي الذي قدّمته اللسانيات للسيميائية- على الرغم من أن التحليل السيميائي ينطلق من آخر مرحلة وصل إليها التحليل اللساني على المستوى الأفقي ليدخل مرحلة تفسير المعطيات وتأويل العلاقات الترابطية بين الدلالات[26]- جليٌّ وواضح، ولا يمكن أن ينكره إلا جاحد أو مكابرٌ.

حيث أن كثيرا من المبادئ اللّسانية- (اللغة/الكلام)، (الدال/المدلول)، (الوحدة/الاختلاف)، (المحايثة)، (المحور النظمي/ والمحور الاستبدالي) وغيرها... سواءٌ في صيغتها السوسيرية الأصلية (مدرسة جنيف) أو تلك التي عدّلها وطوّرها هيلمسليف وغيره (مدرسة كوبنهاقن النسقية)، غدت بعد إثرائها وتجديد محتواها، نقطة انطلاق مهمّة بالنسبة للسيميائية في اجتراح مقولاتها الأساسية، والتأسيس لاستراتيجيتها في القراءة والمقاربة والتحليل، حتى ليبدو " التسلسل سوسير- هيلمسليف- غريماس مثبتا بشكل واضح" كما يقرر ج. ك. كوكي[27]. وهو موضوع دراسة أخرى إن شاء الله تعالى.

الهوامش والإحالات:

1. محمد نظيف، ماهي السيميولوجيا؟ إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1994، ص45.

2. A.J. GREIMAS. J. COURTÈS. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage. Hachette Université. Paris 1979. p.339.

3. عبد المالك مرتاض، أ، ي، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي لمحمد العيد آل خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص 21.

4. ينظر: محمد السرغيني، دروس في السيميائيات، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987، ص 21.

5. A. HENAULT. les enjeux de la sémiotique. éd. P.U.F. Paris 1979.

6. محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي، ص 22.

7. حيث ينص دي سوسير قائلا: "تقوم اللغة على نظام من العلامات الدالة وهي بحكم ذلك شبيهة بالكتابة وبأبجدية الصم –البكم والطقوس الرمزية والعلامات العسكرية وغيرها غاية ما تمتاز به على أنظمة التعبير هذه أنها أكملها وأرقاها.. ومن الممكن أن نتصور علمًا يعنى بدراسة حياة الدلائل داخل الحياة الاجتماعية .. ونطلق على هذا العلم السيميولوجيا (من "Sémeion" أي دليل)، وسيكون على هذا العلم أن يعرّفنا على وظيفة هذه الدلائل وعلى القوانين المتحكمة فيها..."، ينظر:

F. de SAUSSURTE. Cours de linguistique générale. Payot. Paris 1978. p.66.

* حيث نجد (جوليا كريستيفا) في هذا الصدد تدعو إلى إرساء قواعد السيميائية الأدبية قبل تأسيس علامية عامّة، لأنّ النّص الأدبي يعتبر أهمّ نظام علامي مادّته اللغة وهذه الأخيرة هي الركيزة الأساسية في دراسة خصائص النظام اللّغوي للنّص الأدبي، وبالتالي تأسيس السيميائية الأدبية التي طوّرت مناهجها بطور اللّسانيات ومفاهيمها.

لمزيد من التفصيل ينظر:

O. DUCROT et T. TODOROV: Annexe du dictionnaire Encyclopédique des sciences du langage. p.p 433 – 453.

8. R. BARTHES. éléments de sémiologie. Donoel gontier. Paris 1965. p.81.

9. Idem.

10. حوار مع أج. غريماس، أجراه خليل أحمد، الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب بدمشق، ع15، نوفمبر 1980، ص 193، عن رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، مرجع سابق، ص 8.

11. ينظر الحوار نفسه، ص 194، عن المرجع نفسه، ص 8.

12. محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي (نظرية غريماس)، ص25.

13 L'entente. " Benveniste " " Sémiologie de la langue" in " problèmes de linguistique générale V" Gallimard 1974، p.p. 43.67.

14.أحمد يوسف، التحولات السيميائية (الخطاب البصري..)، مجلة كتابات معاصرة، لبنان، ع32، 1998، ص 22.

15.ينظر: محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردّي، ص 30

16.سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردّية، ص 30.

17.ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

18.ينظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

19.سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردّية، ص 27.

20.ينظر: رولان بارت، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، تر/نخلة فريفر، مجلة العرب والفكر العالمي، ع5، شتاء1989، ص 18، 19.

21 Voir: P. RICOEUR، Le récit de fiction" in: La narrativité. Ouv collectif. Ed. centre d'histoire des Sciences et des doctrines، Paris 1980. p.30.

وينظر أيضا-لمزيد من التفصيل-سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردّية، ص 25.

22.ينظر، مجموعة من المؤلفين، سيمياء براغ للمسرح، ترجمة وتقديم أدميركورية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، ط1997، ص 6.

23. Claude CHABROL، Sémiotique narrative et textuelle، Larousse، Paris 1973، p 24.

24.11 -10 .ينظر، مجموعة من المؤلفين، سيمياء براغ للمسرح، ترجمة وتقديم: أدميركورية، ص ص

25.ينظر، م ن، ص 10.

26.عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردّي معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق". ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 127.

27.ينظر: رشيد بن مالك، السيميائية أصولها وقواعدها، ص 87، 88.